الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٧ —

منزلته الشعرية

كان الكميت شاعراً عالماً جمع من الثقافة العلمية مالم يجتمع لشاعر فى عصره ، حتى قال بعضهم : كان فى الكميت عشر خصال لم تكن فى شاعر : كان خطيب بنى أسد ، وفقيه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وثبت الجنان ، وكان كاتباً حسن الخط ، وكان نسابة ، وكان جدلياً ، وهو أول من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك ، وكان رامياً لم يكن فى بنى أسد أرمى منه ، وكان فارساً ، وكان شجاعاً ، وكان سخياً ديناً

وقال أبو الفرج الأصبهانى : أخبرني عمى ، قال حدثنى محمد بن سعد الكرانى ، قال حدثنا أبو عمر العمرى عن لقيط ، قال : اجتمع الكميت بن زيد وحماد الراوية فى مسجد الكوفة ، فتذاكرا أشعار العرب وأيامها ، فخالفه حماد فى شىء ونازعه ، فقال له الكميت : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ؟ قال : وما هو إلا الظن ، هذا والله هو اليقين ، فغضب الكميت ثم قال له : لكم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان تروى ؟ ولكم شاعر أعور أم أعمى اسمه فلان بن عمرو تروى ؟ فقال حماد قولا لم يحفظه ، فجعل الكميت يذكر رجلا رجلا من صنف صنف ويسأل حماداً هل يعرفه ؟ فاذا قال لا ، أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى ضجرنا ، ثم قال له الكميت : فانى سائلك عن شىء من الشعر ، فسأله عن قول الشاعر :

طرحوا أصحابهم فى ورطة ... قذفك المقلة شطر المعترك

فلم يعلم حماد تفسيره ، فسأله عن قول الآخر :

تدريننا بالقول حتى كأنها ... يدرين ولداناً تصيد الرهادنا

فأفحم حماد ، فقال له : قد أجلتك إلى الجمعة الأخرى ، فجاء حماد ولم يأت بتفسيرها ، وسأل الكميت أن يفسرها له ، فقال المقلة حصاة أو نواة من نوى المقل يحملها القوم معهم إذا سافروا ، وتوضع فى الاناء ويصب عليها الماء حتى يغمرها ، فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء ، والشطر النصيب ، والمعترك الوضع الذى يختصمون فيه فى الماء ، فيلقونها هناك عند الشرب ، وقوله (يدريننا) يعنى النساء ، أى ختلننا فرميننا ، والرهادن طير بمكة كالعصافير .

وذكر ياقوت أن ابن عبدة النساب قال : ماعرف النُّسَّابُ أنساب العرب على حقيقة حتى قال الكميت النزاريات ، فأظهر بها علماً كثيراً ، ولقد نظرت فى شعره فما رأيت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها .

وأخرج ابن عساكر أنه كان يقال : ماجمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ماجمع الكميت ، فمن صحح الكميت نسبه صح ، ومن طعن فيه وهن .

وقال أبو عكرمة الضبي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ، ولا للبيان لسان .

وقد عنى ابن الأعرابى بدرس شعر الكميت ، ولم يكن يعنى إلا بالشعراء الفحول الذين يعرفون الأنساب ، أو يمتون بعرق إلى الأساليب الجاهلية ؛ ولم يعن ابن الأعرابى بدرس شعر الكميت فحسب ، بل كان يذكر به من يغفلون عنه حين يعرضون عليه ماعرفوا من معانى الشعراء .

وأخرج أبو عكرمة الضبي عن أبيه قال : أدركت الناس بالكوفة يقولون : من لم يرو :

« طَرِبْتُ وماشوقاً إلى البيض أَطْرَبُ »

فليس بهاشمى ، ومن لم يرو :

« ذكر القلبُ إلْفَهُ المهجورَا »

فليس بأموى ، ومن لم يرو :

« هلاَّ عرفتَ منازلاً بالأبرقِ »

فليس بمهلبي ، ومن لم يرو :

« طَرِبْتَ وهاجَكَ الشوقُ الحثيثُ »

فليس بثقفى .

فهذا كله إلى مانقلناه عن معاذ الهراء يظهر لنا كيف كانت طائفة كبيرة من العلماء والأدباء تتعصب للكميت وشعره إلى هذا

الحد من التعصب ، ومانظن أن نظرهم فى هذا كان يجاوز جانب اللفظ والمعنى فى شعر الكميت ، فلا ينظرون إلى شىء آخر بعدهما يسمو به الشعر أكثر مما يسمو بهما ، ويمتاز به الكميت ابن زيد على شعراء عصره جميعاً .

وكان يوجد إلى جانب هذه الطائفة المتعصبة للكميت طائفة أخرى من الأدباء والشعراء تتعصب عليه وتقدح فى شعره ، ومن هؤلاء المتعصبين عليه بشار بن برد ، وكان يقول : ما كان الكميت شاعراً ، فقيل له كيف وهو يقول :

أنصفُ امرىء منْ نصف حىٍّ يسبنى
لعمرى لقد لاقيتُ خطباً من الخطبِ

هنيئاً لكلبٍ أن كلباً تسبنى
وأنى لم أردد جواباً على كلبِ

لقد بلغتْ كلبٌ بسبىَ حظوةً
كفتها قديمات الفضائحِ والوصبِ

فقال بشار : لا بلْ شانئك ، أترى رجلا لو . . . ثلاثين سنة لم يستملح منه شىء ؟

وقد كان مذهب بشار في الشعر إيثار اللفظ السهل على العويص ، وكان فى هذا قدوة من أتى بعده من الشعراء المولدين ، والكميت يخالفه فى هذا المذهب مخالفة تامة . قال محمد بن أنس الأسدى ، حدثنى محمد بن سهل راوية الكميت ، قال سمعت الكميت يقول : إذا قلت الشعر فجاءنى أمر مستو سهل لم أعبأ به حتى يجىء شىء فيه عويص فأستعمله

ومن هنا يجىء تحامل بشار على الكميت . وعندى أنه لا يصح أن يقدح فى الشعر أن تكون ألفاظه سهلة أو عويصة ، فلكل من ذلك مقامه فى طباع الشعراء وتمكنهم من اللغة وغريبها ، وكذلك ما يحيط بالشاعر من ظروف الزمان والمكان وغيرهما

وممن كان يتعصب على الكميت أيضاً رؤبة بن العجاج ، وقد ذكر المبرد عن رؤبة أنه قال : قدمت فارس على أبان بن الوليد البجلى منتجعا له ، فأتانى رجلان لا أعرفهما فسألانى عن شىء ليس من لغتى فلم أعرفه ، فتهامزا بى ، فتقبضت عليهما فهمدا . ثم كانا بعد ذلك يختلفان فيسألان عن الشىء فيكتبانه ويدخلانه فى أشعارهما ، فعلمت أنهما ظريفان ، وسألت عنهما فقيل لى : هما الكميت والطرماح

وكان ذو الرمة يرى فى الكميت ما يراه فيه رؤبة بن العجاج ، وقد أتى الكوفة فلقيه الكميت فقال له : إنى قد عارضتك بقصيدتك ، قال أى القصائد ؟ قال : قولك :

ما بالُ عينك منها الماء ينسكبُ
كأنه من كلى مفريةٍ سَربُ

قال : فأى شىء قلت ؟ قال قلت :

هل أنتَ عن طلب الأيفاعِ منقلبُ
أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللَّعِب

حتى أتى عليها ، فقال له : ما أحسن ما قلت ، إلا أنك إذ شبهت الشىء ليس تجىءُ به جيداً كما ينبغى ، ولكنك تقع قريباً ، فلا يقدر إنسان أن يقول أخطأت ولا أصبت ، تقع بين ذلك ، ولم تصف كما وصفت أنا ولا كما شبهت . قال : وتدرى لم ذاك ؟ قال : لا ، قال : لأنك تشبه شيئاً قد رأيته بعينك ، وأنا أشبه ما وصف لى ولم أره بعينى ، قال : صدقت هو ذاك

وليس هذا من رؤبة وذى الرمة إلا تعصباً على الكميت من أجل أنه كان حضريا ، وأنهما كانا بدويين يذهبان فى الشعر مذهب أهل البدو . وقد ذكرنا أن الكميت كان يجمع فى شعره بين أدب الحاضرة والبادية ، فكان من جهة اللفظ والأسلوب كسائر شعراء البادية فى الاسلام والجاهلية ، وكان من جهة الغرض الذى يرمى إليه فى شعره حضرياً يذهب فى ذلك مذهباً جديداً يليق بشاعر مثقف يمثل ثقافته ، وهو فى هذا يخالف شعراء عصره إذ كانوا يذهبون فى أغراض الشعر مذهباً بدوياً جاهلياً لا أثر فيه للثقافة الاسلامية ، ولا تتفق غايته مع الغاية التى كان يجب أن تكون غاية الشعر فى هذا العصر

والشعر عندنا كما يوزن بألفاظه ومعانيه يوزن بأغراضه ومقاصده ، فلا يصح أن يكون الشعر الذى له غاية سامية فى الحياة كالشعر الذى لا يراد منه إلا اللهو والعبث ، وليس جد الحياة كهزلها ، ولا حقها كباطلها ، فليكن جد الشعر فوق هزله ، وليكن حقه فوق باطله ، وليكن الكميت فى هاشمياته فوق شعراء عصره جميعاً

عبد المتعال الصعيدى